المحاضرة الأخيرة

مــنهـج البـحـث في علم الاجتماع الثّقافي

مقدّمة:

تندرج هذه المحاضرة ضمن سياق الوقوف على إشكاليّة هامّة تتعلّق بمنهج البحث في علم الاجتمـاع الثّقـافي، محـاولين ضمن هذا المسعى انطلاقا من مقاربــة سوسـيولوجيّة الحـديث عن الأطر العامّة التي يقوم عليها منهج البحث في هــذا الفـرع المعـرفي الهـام المُسـمّى علم الاجتمـاع الثّقـافي، وهـذا دون إغفال مُلامسة بعض الأنساق المعرفيّة الأخرى في حقل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّـة بحكم طبيعـة الظّـاهرة الثّقافيّة من حيث ليونتها ووقوعها على أرضيّة مشتركة بين جملة من التخصّصات المُشار إليها آنفا، ولعلّ من ضمن المسائل الـتي يجب الخـوض في حيثيّاتهــا قبــل التطــرّق إلى موضــوع منهج البحث في علم الاجتماع الثّقافي بغرض تبديد بعض الغمـوض والتّضـارب الـذي يلفّ الظّاهرة الثّقافيّة لدى كثير من الدّارسـين في هـذا الشّـأن تلك المتعلّقة بالثّقافة كتصور وتمثّل والثّقافة كممارسات.

ثالثا - إشكاليّة المنهج في علم الاجتماع الثّقافي:

لعـلّ من ضـمن المسـائل الـتي ينبغي التّنبيـه إليها أنّ منهج البحث في علم الاجتمــاع **الثّقــافي** يتقــاطع في كثــير من ملامحـه العامّـة ومنـاهج البحث في مختلـف العلـوم الإنسـانيّة والاجتماعيّة بوجه عام، ولذا فإنّ المقصود بالمنهج بشـكل عـام هـو تلـك **المنظومـة الكـبرى** الـتي تشـمل البنـاء المعـرفي لموضـوع بحث أو دراسـة مـا في شـقّيها النّظـري والميـداني، والتي تتمثّل في الإطار الموضوعي للدّراسـة وعلى رأسـه بنـاء

الإشكاليّة بمختلف عناصرها، كما تشمل المقاربة النّظريّة التي تمّ تبنيّها، وكذا أدوات جمع البيانات.

ومن هنا فإنّ المنهج هو الذي تتأسّس على ضوئه مختلف الرّؤى والتصوّرات التي تنبني عليها عمليّة البحث ونتائجه، حيث ينطوي منهج البحث في علم الاجتماع الثّقافي على جملة من المميّزات، هذه الأخيرة- أي المميّزات- لا تخرج عن طبيعة الظّاهرة الثّقافيّة، بحكم أنّها أي الظّاهرة الثّقافيّة تتميّز بجملة من الخصوصيّات لعلّ من أهمّها تلك المتعلّقة بهلاميّة هذه الأخيرة ممّا جعلها تقع على أرضيّة مشتركة بين عدد من التخصّصات في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، بحيث تجد حضورها ضمن السياقات المعرفيّة لهذه العلوم بشكل مباشر وغير مباشر، وهذا من زوايا مختلفة وضمن إشكاليّات ذات صلة بالمحاور الكبرى لكل تخصّص من هذه التخصّصات المُشار إليها آنفا.

ووفق ما ذكرناه فإنّ إلقاء نظرة عابرة على مختلف الأبحاث والدّراسات السّوسيولوجيّة المعاصرة التي اشتغلت على الحقل الثّقافي بشكل مباشر وغير مباشر، يقودنا إلى جملة من الاستنتاجات مُفادها أنّه ليس من المنطقي في شيء الاعتقاد أنّ منهج البحث في علم الاجتماع الثّقافي يمكن اختصاره في مجموعة من الخطوات الجاهزة، أو تضمينه عبر دليل- Guide- يُوحي للباحث المبتدأ أنّ هذا المنهج يُمكن إسقاطه بشكل اعتباطي على جميع مواضيع البحث السّوسيولوجيّة المهتمّة بالمسائل الدّينيّة.

ولعلّ من ضمن الأسباب المنطقيّة التي تقف وراء ما أشرنا إليه أنّ البحث في الظّاهرة الثّقافيّة من الوجهة السّوسيولوجيّة يتميّز بنزوعه نحو القراءات الكيفيّة أكثر منه نحو القراءات

الكميّة، وهذا الأمـر إنّمـا يتوقّـف على طبيعـة الظّـاهرة الثّقافيّة المتميزة بالليونة وهلامية حدودها.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأطُر المنهجيّة لعلم الاجتماع الثّقافي إنّما يتم تحديدها انطلاقا من البناء المعرفي لعنوان الدّراسة بما ينطوي عليه من أبعـاد إبسـتيمولوجيّة وكـذا الأهـداف المرجـوّة منهـا، وهـو مـا يجعـل البـاحث في هـذه الحالـة يتمتّـع بالحريّـة الكاملة في الاغـتراف والأخـذ من الـزّاد المنهجي الـذي تـوفّره مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، وقد يضطر الباحث أحيانـا إلى التّماهي والتقيّد بالمنهج التّقليدي لعلم الاجتماع في حـالات معيّنة تفرضها طبيعة دراسته وأهدافها أيضا.